فؤاد الكامل

اللاّ معنى خارجنا لما هو داخلنا

عليّ وحدي ان انطلق في الظلام ، اتضرع الى الاشكال التي تستيقظ على وحدة نفسية كونية جديدة ، لا تحدها مقاييس العقل واطواق المنطق ، تزاوج الطاقة والحركة باختلاجات المادة الصماء ، التي تتخلص من الملاحظة الوصفية والمعرفة البصرية .

اجل ، ان صوري بعض ملامح تلك القبة اللازوردية التي لا تنتهي ، او تلك الارض السوداء التي تدور عليهـــا الكائنات ولا تكفّ عن الدوران ، ومن الخيال والاحلام الطليقة والتمرد والقلق المزمن والهواجس والاشواق الغامضة المتأججة . احتفظ لنفسي بالحق المطلق في اختيار ما اشاء منها مادة لفني ، لتؤلف جزءاً من مخزون قديم جـــداً ، مما ورثته عن الاسلاف ، عن الفضاء اللامحدود ، عن الحس الكوني كله .

الينبوع الذي تنبثق منه دوافعـــي وحقيقتي ، يحرك نفسي فأترك زمامها لفني وامضي ، استكشف نقطة فريدة ، ترتعش في قلب عاصفة او تغفو في حضن الدجى ، تختفي في سحابة نجم قديم منفجر او في تجاعيد الميلاد والحب والموت .

اجل ، لقد تعلمت — من طول ما عانيته انا ابن الصدفة التي يتحكم فيها العمى المطلق لكيما اكفر بالصدفة — الامتثـــال لالتماع البرق ، القلب ، استكشف به طريقاً يسوقني الى هتك ذلك القناع العريض الذي يستر عريي الداخلي ويحجب تناقضي الخارجي . ولا اخشى ان اطيح بصورة اي كائن ، فاني لا اعلم ابداً ما انتهي اليه بالدقة ، اذ لا اخضع لخطة ارسمها مقدماً ، ولا اشكل مادتي وفق مشروع سابق .

انني اتخذ من ذرات السحاب ضروباً من السحر تزودني بمنافذ عديدة ، اقف بها امام نفسي وجهاً لوجه ، واقترب من سماواتي الداخلية ، اصيخ السمع الى خلجات الموجودات جميعاً ، الى الحفر والخرط ، الى التطعيم والتعشيق ، استخرج منها خطوط الحلم الذي لا ابعـــاد له . عالم ضئيل هادىء ، او عالم عظيم مدمر ، من العبث ان ابحث له في فني عن معنى ،

فالشكل ليس بديلاً للحياة او الادب او الفلسفة او حتى الشعر .

اجل ، ان وظيفته الخاصة عندي لا يمكن ان احددها بمصطلحات الفكر ؛ انه يمدني بلون غريب من العزاء استمده من قدرته على عطـــاء ذلك الايقاع الشخصي ، الذي قد يؤلف شيئاً من تلك الملامح الحيوانية المميزة ، التي تستطيع ان تحول انفعالاتي الى تلـــك القرابة الحميمة من الرؤى الكونية . فبخلق الشكل اخلق الرغبة في خلق الحوار الداخلي ، بينه وبين تموجاتها التي لا تشير الى معنى بعينه ، بل تشير الى الانسان عموماً الذي دارت عليه فصول المأساة الكبرى . ذلك المجهول الرابض وراء الاشكال ، ومن ورائه تلك اللجج اللانهائية من الفضاء التي ارتبط بها قدره الذي لا يبصر ومصيره الذي لا يجيب .

انني اثناء تدبير شؤون فني ، اعمل كما افكر ، وافكر كما اعمل ، اي بجميع جوارحي – بذهني وعقلي وعواطفي ومزاجي ، بل وبأحشائي . لا افصل بين الفعل والفكر ، كما لا افصل بين ذاتي والكون ؛ فالاثر الفني الذي يمتص جميع اشعاعات النفس وبصمات الكون، هو السطح الصخري الاخـــير الذي تطفو فوقه طفوح التصدع والانجراف والشد والضغط والانكماش والترسب . ان هـــي الا محصلة اصطراع مجموعة الحركات الجسدية التي تستلزمها عملية التشكيل، تتيح لما في الواعية الخفية التحرر والانطلاق الى وسط لا ينفصل فيه التفكير عن الفعل عن النشاط الدائم لمفاصل الكتف والكوع والرسغ واليد والاصابع القابضة على الفرجون او على اية اداة اخرى تحدث اثراً ؛ فقماشتي والواني وادواتي وخاماتي ، وكل ما استعين به واود استخدامه ، اشياء لها ارادتها الخاصة ، ما يصدق على عناصر الاثر الفني يصدق كذلك على حركتها جميعاً .

اجل ، ان صوري مهما كبر او ضؤل حجمها، عشق وعجب ومغامرة، اتخطى بها عالم المرئيات وافصل مادة الفن عن صورته ، كيما اقيم فوقها الشكل المطلق ، استكشف به عالم المجهول ، يتراءى لي ، وانا اول من ادهش له . وعندما اخلع نقاب الزركشة والوشي واحطم اليقين الرياضي والبناء الهندسي ، اجد نفسي واجماً امام قدر متربص وكون صامت ؛

لكني اقترب من سراديب مطمورة كامنة في الاغوار البعيدة ، من قوى طاردة عاملة على التشعب والتناثر ، ومن قوى جاذبة عاملة على التلاقي والتجمع . ذلك الصراع بين الذات الحرة والعالم الخارجي ، يتولد منه نسيج لوحاتي ، نسيج النفس واشتهاءاتها ، نسيج المجرات والفضاء المزدهر بالنجوم ، نسيج التموجات والتعرجات عندما تتقمص بذرة الحياة الاولى ، وتبعث الدفء والنور والطاقة في شظايا الصخور البلورية ، في حُبيبات الرمل والطين ، في رذاذ المطر ، في عروق الرخام وجذوع الجميز والسنط . وكأنما تجتاز ممراً سحرياً تختفي فيه خطوط الارض والافق الى الابد ، وقد يختفي الضوء ايضاً ، فيختفي معه الشكل وظله تماماً .

وأصل الى ما يشبه المأزق ، لا ابرح ان استلهم من القوة والعنف ، ومن الهدوء والارتخاء ، من ثنايا تبدلات الاشكال ، بل انتفاضاتها ، شيئاً ما يفجر الطاقة الراقدة فيها ، حتى تتكشف لي انسجة متباينة ، من ذلك الغشاء العازل الكثيف الذي ينسدل ، كلما زحزحت ستراً اسدلت ستراً لما ينتهك ، وكلما ضللت طريقاً انرت طريقاً لما تطأه قدم . صورة صراعها المستمر بين ما هو كائن فعلاً وما سيكون في لحظة تالية ، في صراع الوهم والحقيقة ، الباطن والظاهر ، الفاني والباقي ، تتخطى حدود النظم ، وقد تسمح بالكشف النسبي عن العوامل الاكثر عمقاً وتكراراً ، التي قد تؤلف نسبياً شبه قاعدة اساسية ، تصبح للتوّ مجموعة من الحالات تقطعت وتناثرت ، وما قد يبدو - فيما بينها - من اتصال وعلاقة ، انما يصدر عما اريده لها من اتصال وعلاقة . قد ابني فوقها وجدان هذه اللحظات الراهنة ، ان اردت الربط بينها وتنظيمها ، فاستدعاء لسحرها العشوائي ؛ اما نقلها الى دائرة التفكير الموجه لاستخدامها في اغراض تطبيقية او لتنبت اسطورة ، فاتركه لاصدقائي الذين لا يقتنعون بغير موتي . وهنا تكمن محنتي وحيرتي ، عندما استيقظ وتتسع الهوة ، وانحدر فيها انحدار السيل القاصف ، او عندما يتألق الكروان فجأة في رجفة الشوق . وادرك انتظاري الدائم الرهيب ، بفضل هزة الرعب او شجن اللقاء ، لقاء المصير .